

المحدثة العالمية العالية السند عائشة المقدسية

بنت محمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي

816/723هجري

الباحثة نبيلة حسن القوصي

إخوتي قراء زاوية "معالم وأعيان" ..

تعد المرأة على مر الأزمنة عاملاً أساسياً مؤثراً على البنية الاجتماعية، فهي تتأثر وتؤثر ليتكامل دورها في المجتمع مع الرجل في إحداث التغيير المنشود في رفعة و رقي الأمم والمجتمعات. وقد سطرت المرأة في العصور الماضية ومن أرض دمشق أروع الأسطر في جميع المجالات، بمسؤولية واعية وحكمة، فقد كانت الأديبة والفقيرة والقاضية والمقرئة والراوية للأحاديث النبوية الشريفة... وما زالت تساهم بكل طاقتها في رعاية الأبناء والأفراد لتساهم في بناء مجتمع قوي سليم معاني يحمل سمات الرقي والعلم والمعرفة الصحيحة التي تقرنا من نيل رضى سيد الكون الذي قال: ((فلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته،... والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته...)).

لقد ساهمت النساء الدمشقيات إلى جانب الرجال في مجالات شتى، فبنين المدارس في بيوتهن، ومارسن واجباتهن على أكمل وجه، فكن للرجال شقائق بحق.... وتركن أسمائهن في سجلات التاريخ نجومًا تلتهم إلى يوم الدين.

هذا وإن بناء أجيال يفاخر بها النبي الكريم في الحياة الآخرة هو أمر يستحق منا العناية والاهتمام، لذا فإن مسؤولية المرأة في بناء مجتمع سوي سليم معاني نفسياً واجتماعياً تبلغ من الأهمية مكانة بالغة الخطورة، من حيث أنها مصدر السكن والحنان والود والرحمة في الحياة الأسرية ثم المجتمعية.

ولنعد معاً إلى القرن الثامن للهجرة، عصر المماليك البحرية (648. 784هجري)، الذي شهد ازدهاراً حضارياً رائعاً جاء متمماً لعصر الأتابكة والأيوبيين في مختلف النواحي، ولنقف عند سيرة محدثة عالمة كانت لها شهرة وذكر بين الناس، وما أكثرهن ! ولكن أن ننفذ الغبار عن الكتب لتتعلم ونعمل ، هنا بيت القصيد.....

فمن هي هذه المرأة الصالحة المحدثة العالية السند ؟

إنها عائشة بنت محمد بن عبد الهادي، التي كانت تقطن حي الصالحية في دمشق مساهمة بإعمارها بالعلم النافع البناء، فمن هي؟ ومن كان له الفضل في إرساء اسمها في كتب السير والطبقات؟

إخوتي:

إن من الأئمة المحدثين من السلف الصالح من حملوا على عاتقهم تكاليف الجهاد العلمي والنقل و التوثيق منذ أن نشطت وازدهرت حلقات العلم والتأليف في القرون الأولى، فكان كل جيل يسلم الأمانة من العلم إلى من بعده، لصون وسد الثغرات في وجه الدسائس التي تحاول التشويش على هذا الإرث النبوي... ففي نفس الوقت الذي بدأ فيه جمع الحديث الشريف، وُضعت ضوابط دقيقة للسند والرواة، تمكّن المتبصر من ملاحظة أي وهم أو تدليس..

وتتابع ظهور العلماء المحدثين الأمتاء، ونشطت الحركة العلمية النسائية بالتوازي مع ذلك، و في القرن الثامن للهجرة... برزت أسماء النساء في مناصب هامة في المجتمع، وقد أتينا على ذكر الفقيهة القاضية الشاعرة عائشة الباعونية، وأيضاً عالمة عصرها المحدثة: **عائشة بنت محمد بن عبد الهادي المقدسي**، " أم محمد"، سيدة المحدثين في ذلك الوقت بدمشق.

مولدها ووفاتها: في دمشق 723. 816 هجري، التي شأت وترعرعت في حضن أسرة علمية دينة تقية، كانت قد احتضنتها دمشق العظيمة فيما سبق من الأيام ...

قرأت: صحيح البخاري على الحافظ الحجاز، وروت عن أبي العباس صحيح البخاري بالسماع وتفردت بذلك، وسيرة ابن اسحاق.

وروى عنها: ابن حجر العسقلاني، وقرأ عليها كتباً عديدة.

درست فقهاء: كالواسطي، و زينب بنت الكمال، و زينب بنت يحيى بن عبدالسلام، بالإسماع والإجازة، وقد أجازها الكثيرون، وأخذ عنها الأئمة.

والعلو في السند واحدة من طرق نقل الحديث النبوي الشريف، وطلبه سنة عمن سلف، لذلك استُحبت الرحلة، كما قال الإمام النووي.

وتفردت المحدثة في آخر عمرها لعلم الحديث النبوي الشريف، وكانت سهلة الأسلوب في التعليم والإقراء.

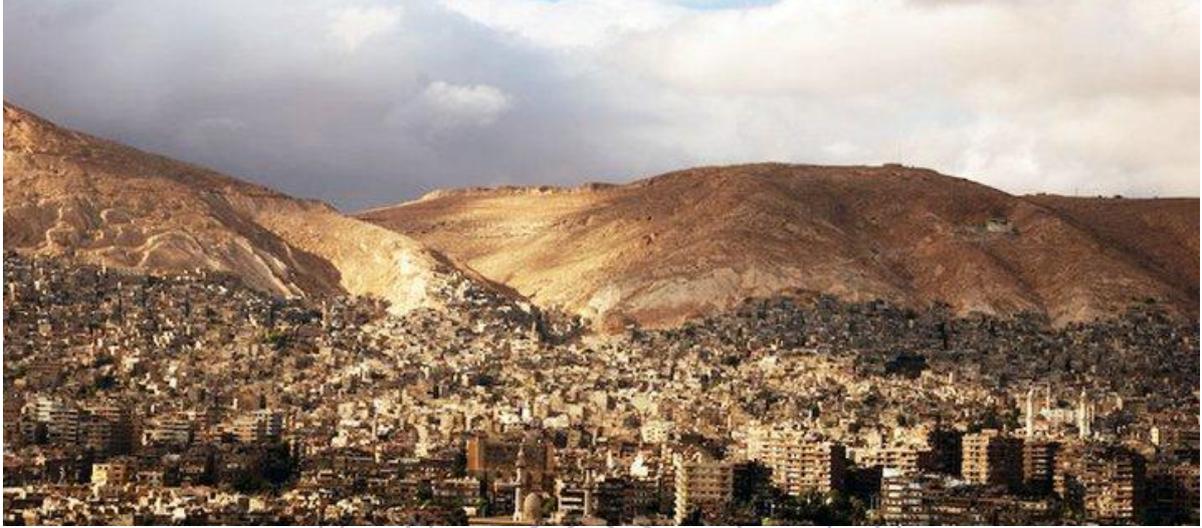
قال الصفدي: " كانت أسند أهل الأرض في عصرها".

وقال الحافظ ابن حجر:

" وهي آخر من حدث عن شيوخها بالسمع والإجازة، ونزل الناس بموتها درجة الآفاق "

وفاتها: توفيت في 4 جماد الأول 816 هجري، وصلي عليها في جامع الحنابلة بسفح قاسيون،

وُدُفنت بالعفيف بسفح قاسيون . رحمها الله . .



فكن، يا أخي، لحديث المصطفى ملازماً، ولأوراده مذاكراً، واستحضر في القلب ساعة صدق للوقوف بين يدي الخالق، وكن للوقت مغتمناً، وتحلّ بالصدق والأمانة، فهما بوابة الولوج إلى الحضرة الإلهية.. وقد كان الصدق صفة ملازمة للنبي ﷺ وعلى الأنبياء أجمع، فقد كان يلقب بالصادق الأمين، ووصفته السيدة خديجة رضي الله عنها عند نزول الوحي عليه بقولها: "إنك لتصدق الحديث..."، فحريّ بنا نحن المسلمون أن نتأسى برسولنا الكريم في صدقه وأن نجعل من الصدق صفة ملازمة لنا، ولتكن لك، يا أخي، جلسة صدق مع الله في كل حين ترمم بها ما فات... وما أجمل قول الشاعر:

وعود لسانك قول الصدق تحظّ به إن اللسان لما عودت معتاد

فكن للصدق ملازماً ولا تُفحم نفسك في خوض حديث الشائعات، فقد تصبح معول هدم وأنت لا تدرك... وكم أثارت الشائعات من فتن وويلات، ولذلك أمرنا النبي أن نملك علينا لساننا، فقال صلى الله عليه وسلم: **(كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع).**

ولننصت لأستاذنا الفاضل العالم المحدّث، الدكتور بديع السيد اللحام، عندما تحدث عن جهود العلماء في علم الحديث، وقد ابتدأ مقدمته بموجز عن فضل دمشق بين مدن العالم، فقال: " إن من

أصح ما ورد في فضائل المدن بعد مكة والمدينة المنورة هو ما ورد في فضائل الشام بعامة ودمشق بخاصة، من ذلك قول النبي: (الشام صفوة الله من بلاده إليها يجتبي صفوته من عباده، فمن خرج من الشام إلى غيرها فبسخطه، ومن دخلها من غيرها فبرحمة)، وإذا كانت الشام هي الصفوة فإن دمشق هي صفوة الصفوة من بين مدائن الشام، وذلك بإخبار من لا ينطق عن الهوى: (إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق، من خير مدائن الشام)... ثم أصبحت هذه المدينة محط رحال الرجال الفضلاء، ومحجة العلماء وطلاب العلم منذ عصر الصحابة حتى يوم الناس هذا... وقد كان لهذه المدينة الحظ الأوفر من ميراث النبوة على مر العصور.....

فعلم الحديث بالنسبة لباقي العلوم الإنسانية بمثابة القلب النابض، ومن هنا كانت الحاجة ملحة إلى دراسة كل ما يتعلق بالحديث وعلومه، وما يثار حوله من الشبهات المضللة... فإنني أوصي بتخصيص أقسام في الجامعات والمعاهد العلمية الإسلامية لدراسة تاريخ العلوم والمعارف عند المسلمين".

ولتنصت، أيها السائح المتأمل، إلى توقيير العلماء المحدثين لغيرهم من حملة الإرث النبوي، حيث قال الإمام السبكي عندما زار دار الحديث الأشرفية:

وفي دار الحديث لطيف معنى
أصلي في جوانبها وآوي
عساني أن أمس بجُزّ وجهي
مكانا داسه قدم النواوي

هذه هي الشام، وهذه هي دمشق التي قد سكنت في قلوب الصالحين من العلماء، فهي سيدة الأرض بعد الحرمين، وسيكون مؤول الإيمان والإسلام فيها كما أخبر وحدّث خير البرية، وستظل رسائل العلماء لنا عبر التاريخ والعصور باقية: أن نحيا بخلق محمدي دون تحييد لهذا وذاك.. وابن الصلاح والسبكي وعائشة وغيرهم من علماء دمشق يسألوننا الإصغاء لسيرهم بهدف التعلم، بعد الصلاة والسلام على سيد الأخلاق... فيا رب نسألك فرحاً قريباً للشام وأهلها... ونستغفر ك ونتوب إليك فأنت أعلم بحالنا و مآلنا .. فهل من قبول وصفح جميل يا رب؟

المصادر:

الدرر الكامنة/ للعسقلاني
القلائد الجهورية/ لابن طولون
وفيات الأعيان/ ابن خلكان